تمهيد

فى التدوين عند العرب

أ ـ بين الرواية والتدوين :

١ ـ لم تظهر المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي فجأة ، بل مرت ـ شأن الثقافة بعامة ـ بمراحل وأطوار من الإعداد والتمهيد ، وهي مراحل الرواية والجمع والتدوين للمعارف المختلفة ، متأثرة في الوقت نفسه بمراحل تطور وسيلة التدوين نفسها ، وهي الكتابة اللغوية ، وبالأدوات اللازمة للكتابة ، وفي مقدمتها الورق . فمن البدهي أن غياب الورق يحد من حجم الكتابة والتدوين ، وأن عدم معرفة الكتابة من شأنه أن ينشط حركة الرواية ، حيث يستعين الإنسان بقوته الحافظة في اختزان المعلومات واسترجاعها عندما يقتضي الأمر . فإذا توافرت المعرفة بالكتابة وتوافرت وسائلها كان التدوين ثم التأليف .

وتجمع الدراسات الحديثة على أن العرب قد عرفوا الكتابة منذ العصر الجاهلي ، بخاصة في مراكز التحضر المختلفة آنذاك ، في الشمال الشرقي لشبه جزيرة العرب ، وفي شمالها الغربي ، وفي اليمن جنوبياً ، وفي الحجاز أيضاً ، في مكة والمدينة . فيقال إنه عند مجيء الإسلام كان في مكة سبعة عشر كاتباً ، وفي المدينة أحد عشر كاتباً ، وإن كان المظنون أن عددهم في هاتين المدينتين كان أكبر من ذلك [1] . بل إن الكتابة تسربت في ذلك العصر ـ هوناً ما ـ

(١) راجع حسين نصار : نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٦ ص ٢٣ .

إلى بعض القبائل في البوادي ؛ فقد كان أكثم بن صيفي — حكيم قبيلة تميم — يعرف الكتابة [1] . وكذلك كان الشاعر الجاهلي المسمى بالمرقش الأكبر يعرفها [2] . وحين نزل القرآن الكريم دعا العرب إلى ضرورة استخدام الكتابة في بعض المعاملات : « يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدَيْنٍ إلى أجل مُسَمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يَأْبَ كاتب أن يكتب كما علمه الله » . هذا فضلاً عن قسمه في أكثر من آية بالكتابة وأدواتها : « ن . والقلم وما يسطرون » . — « والطور ، وكتاب مسطور ، في رقٍّ منشور » . ولا بد أن القرآن الكريم — في هذا — إنما كان يخاطب العرب بما يعرفونه ويقدرونه .

٢ — والشواهد على معرفة العرب للكتابة منذ العصر الجاهلي كثيرة . وهي جميعاً روايات متناثرة هنا وهناك في المصادر القديمة ذاتها . لكن الخلاف بين الدارسين المحدثين يقوم أساساً حول حجم هذه المعرفة ، وبالأحرى حول حجم ما دونه العرب في العصر الجاهلي .

(أ) فمن الدارسين من يكاد ينفي تدوين العرب قبل الإسلام شيئاً من معارفهم ، فيقول : « لم يكن للعرب في فترة ما قبل الإسلام ثقافة مدونة وعلوم مسجلة ؛ فقد غلبت عليهم البداوة ، واستغرق حياتهم التنقل ، ففشت فيهم الأمية ، ولم يتركوا خلال هذه الحقبة المديدة الغامضة من فجر حياتهم سوى نقوش قليلة تنبىء عما كان لهم من دور حضاري ، حتى إن هذه النقوش لم تكن متوافرة إلا في بعض المناطق العربية ، كجنوبي جزيرة العرب وشماليها ، حيث توجد الأحجار والصخور ، على حين كان باطن الجزيرة وأكثر ربوعها سهوباً وصحارى لم تسعف سكانها العرب في ترك مياسمهم على الأرض

---

(١) نفسه .

(٢) أبو الفرج الأصفهاني : كتاب الأغاني ، ط دار الكتب ، ج١٦ ، ص ١٣٠ .

التي عاشوا فيها أحقاباً مديدة » . [1]

(ب) والمستشرق الفرنسي « بلاشير » يقلل من شأن التدوين قبل الإسلام ومن حجم ما دون آنذاك ، مرجحاً دور الرواية الشفوية في سيرورة الشعر الجاهلي وانتشاره ، فيقول : « لا شك في أن بعض الرواة في بعض المراكز الحضرية قد دونوا كتابة بعض القصائد الهامة ، ولكن ذلك يعوزه الدليل . حتى ولو سلمنا بصحة وقوع ذلك فإن التدوين لم يشمل إلا جزءاً من آثار الشعراء الحضريين ، أما البقية فقد سارت في الصحراء عن طريق الرواية الشفوية . وخلاصة القول فإن الرواية الشفوية وحدها تؤلف الطريقة الأساسية لنشر الآثار الشعرية ، منذ اللحظة التي قذف فيها الشاعر وراويته تلك الآثار في خضم الجماهير » . [2] ولا ندري إن كان موقفه هذا ينسحب على غير الشعر من ألوان المعرفة القديمة .

(ج) ومن قبل هذا وذاك تصدى ناصر الدين الأسد لاستقصاء الشواهد الكثيرة الدالة على أن حجم التدوين لدى العرب قبل الإسلام لم يكن هيناً ، فأشار إلى ما كان لدى « دَغْفَل » النسابة من دواوين شعر جاهلية ، وإلى واقعة جمع النعمان بن المنذر ملك الحيرة للشعر العربي في الجاهلية وتدوينه ، ثم إلى رواية لابن الكلبي عما أفاده من أسفار الحيرة ونقوش كنائسها وما كان فيها من أخبار العرب الجاهليين وأنسابهم . ثم قال : « أمامنا إذن ، في هذه النصوص والروايات ، شعر جاهلي ، وأخبار جاهلية ، مدونة كلها في كتب وأسفار ودواوين من الجاهلية نفسها » . [3] ثم يعود فيشير إلى قول بشر بن أبي خازم — وهو شاعر جاهلي لم يدرك الإسلام :

وجدنا في كتاب بني تميم « أحق الخيل بالركض المُعارُ »

---

(1) الدقاق : مصادر .. ص ٧ .

(2) بلاشير : تاريخ الأدب العربي ، ترجمة إبراهيم الكيلاني ، دمشق ١٩٧٣ ، جـ١ ص ١٢٠

(3) ناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلي ، دار المعارف بمصر ١٩٥٦ ، ص ١٦٢ .

وإلى ما ورد فيه من إشارة إلى « كتاب بني تميم » في الجاهلية ، منتهياً من هذا إلى « أن كل قبيلة من القبائل كانت تجمع شعر شعرائها ، وحكم حكمائها ، وأقوال خطبائها ، وأخبارها ومفاخرها ومآثرها وأنسابها في كتاب » . (١)

ومن الواضح أن موقف الباحث هنا من قضية التدوين في العصر الجاهلي يختلف كل الاختلاف عن صاحبيه ، إذ يكاد الأول منهما ينفي تدوين العرب لشيء قبل الإسلام ، في حين يقلل الثاني من حجم هذا التدوين : مثيراً الشك في الروايات التي تؤكده .

ومبدأ الشك في الرواية قد يكون له ما يبرره في بعض الأحيان ، لكننا هنا لسنا بصدد رواية خبر واحد ، أو الاستشهاد بشاهد واحد ، بل نحن أمام روايات وشواهد كثيرة متعددة المصادر . ومن ثم يصبح الشك أمراً مبالغاً فيه . وقد رأينا من قبل كيف كان في مكة والمدينة وحدهما عند مجيء الإسلام قرابة ثلاثين كاتباً . وهو خبر لم يشك فيه أحد . فماذا كان هؤلاء الكتاب جميعاً يدونون في جاهليتهم ؟ .

٣ — وفي إبان الدعوة الإسلامية وفي أعقابها مست الحاجة إلى التدوين على نطاق واسع .

(أ) فقد دون القرآن الكريم كله تفاريق في البداية، دونته طائفة من الكتاب عرفوا بكتاب الوحي . وكان من جملتهم زيد بن ثابت ، وعلي بن أبي طالب ، ومعاذ بن جبل ، وطلحة بن الزبير ، وسعد بن أبي وقاص ، وحذيفة ابن اليمان ، وعثمان بن عفان ، وأُبَيّ بن كعب ، ومعاوية بن أبي سفيان . وقد كان زيد أكثرهم كتابة ؛ لكثرة ملازمته للرسول عليه السلام . وقد ظل القرآن الكريم مدوناً على هذا النحو طوال عهد الدعوة . ولم تمس الحاجة إلى تدوينه مجتمعاً إلا فيما بعد ، بعد أن اختار الله تعالى رسوله إلى جواره ، وبعد

---

(١) نفسه ص ٢٦٤ .

أن قامت فتن المرتدين عن الإسلام في عهد الخليفة الأول أبي بكر . فقد أنفذ أبو بكر جيوشاً من المسلمين لحرب هؤلاء المرتدين ، وخرج في هذه الجيوش عدد كبير من الصحابة ، استشهد منهم في غزوة اليمامة وحدها ألف ومئتان ، كان من بينهم سبعمائة يحفظون القرآن [1] . عند ذلك أوجس عمر بن الخطاب خيفة من أن يأتي يوم يتبدد فيه القرآن لسبب كهذا أو لغيره من الأسباب ، فهُرِع إلى أبي بكر ، وأشار عليه بضرورة تدوين القرآن مجتمعاً . لكن أبا بكر لم يكن ليصنع شيئاً لم يصنعه رسول الله ، فقال لعمر : « كيف أفعل أمراً لم يفعله رسول الله ولم يعهد إلينا فيه عهداً ؟ ! » . [2] لكن عمر — الذي أدرك هول الكارثة المتوقعة — لم ييأس من جداله ، وما زال به حتّى أقنعه بضرورة جمع القرآن . وقد أناط أبو بكر مهمة جمعه بزيد بن ثابت .

ونشط زيد بن ثابت في جمع القرآن مما كان مدوناً عنده وعند غيره من الصحابة . وكان ربما وجد الآية أو السورة مدونة لدى أكثر من واحد منهم . فكان ذلك هادياً له إلى الوثوق بها . وفي الوقت نفسه كان زيد يعتمد على القراء الحفاظ ، ولكنه كان لا يأخذ الآية من واحد منهم إلا إذا شهد عليها شاهدان يؤكدانها ، وكانت النصوص المكتوبة تعد أحد الشاهدين [3] . وحين فرغ زيد من جمع القرآن في مصحف واحد قدمه إلى أبي بكر فظل عنده إلى وفاته ، ثم انتقل إلى الخليفة الثاني عمر بن الخطاب فظل عنده عشر سنين . واحتفظت به ابنته حفصة بعد وفاة أبيها .

وفي عهد عثمان نشطت الفتوح الإسلامية ، وتفرق كثير من المسلمين في الأقطار المفتوحة ، وكان منهم القراء الذين يحفظون القرآن ، كما كان لدى

---

(١) انظر جورجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ، طبعة الدكتور حسين مؤنس . القاهرة ، ج ٣ ص ٦٤ .

(٢) جورجي زيدان : نفسه .

(٣) انظر السيوطي : الاتقان في علوم القرآن ، ج ١ ص ٥٨ .

بعضهم نسخ من القرآن ، رتبها كل منهم ترتيباً خاصاً . وقد كان هؤلاء مرجع المسلمين في تلك الأمصار ، يسمعون منهم القرآن ويأخذونه عنهم . كان أهل الكوفة مثلا يأخذون عن ابن مسعود ، وأهل البصرة عن أبي موسى الأشعري ، وفي دمشق وحمص أخذ الناس عن المقداد بن الأسود ، وهكذا . ولم يخل الأمر من الاختلاف بين هؤلاء في قراءة بعض الآيات . وربما التقوا فقال الواحد منهم للآخر : « قراءتي خير من قراءتك » (١)

عند ذاك أدرك حذيفة بن اليمان الخطر المحدق ، فأسرع إلى الخليفة الثالث عثمان وقال له : أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى (٢) . واستجاب عثمان لنداء حذيفة فأرسل إلى حفصة أن تبعث إليه بالصحف التي لديها لكي ينسخها ثم يردها إليها . فما إن استقرت عنده حتى دعا بزيد بن ثابت مرة أخرى ، ومعه عبدالله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وأمرهم أن ينسخوا تلك الصحف ، وأن يستعينوا في ضبط القراءة بما حفظه القراء . وكان زيد يقود المجموعة في هذا العمل الجليل . ولكن ماذا لو اختلفوا أو اختلف بعضهم معه في قراءة ؟ لقد وضع لهم عثمان المعيار الحاسم ، فقال : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما أنزل بلسانهم (٣) .

وعلى أيدي هذه الجماعة تمت عملية تدوين القرآن في صورة نهائية . ومنذ ذلك الوقت صارت هذه النسخة هي النسخة الأم . وقد أمر عثمان بكتابة ست نسخ منها ، احتفظ لنفسه منها بواحدة ، وجعل واحدة لأهل المدينة ، ووزع النسخ الأربع الباقية على مكة والبصرة والكوفة والشام (٤) .

---

(١) جورجي زيدان : نفسه ، ج ٣ ص ٦٥ .
(٢) نفسه .
(٣) ابن النديم : الفهرست — المكتبة التجارية بمصر — ص ٤٣ .
(٤) جورجي زيدان : نفسه ، ج ٣ ص ٦٥ .

والحق إن تدوين القرآن على هذا النحو يعد أضخم وأدق عملية تدوين تمت في الصدر الأول للإسلام . وما أسرع ما انتشرت النسخ المأخوذة عن هذه النسخة الأم ، وما أكثر ما صار في أيدي الناس من هذه النسخ ، حتى إنه ليقال إن عسكر معاوية في وقعة صفين حين رفعوا المصاحف كان معهم ما يقرب من خمسمائة نسخة [1] . وهذا دليل — من جهة أخرى — على أن عملية النسخ ، أي الكتابة ، كانت قد صارت ميسورة ، وعلى كثرة النُسَّاخ .

(ب) ولم يقتصر الأمر في صدر الإسلام الأول على تدوين القرآن الكريم ، بل مست الحاجة إلى الكتابة في بعض الأمور المتعلقة بالدعوة الجديدة . فمنذ البداية اقتضى الأمر كتابة بعض المعاهدات ، كالمعاهدة التي أمر الرسول عليه السلام بكتابتها على أثر هجرته إلى المدينة ، لتنظيم العلاقات بين المهاجرين والأنصار واليهود . وهي معاهدة طويلة [2]

وإلى جانب المعاهدات نجد الرسائل التي بعث بها الرسول إلى القبائل المختلفة ، سواء لعقد حلف معهم ضد قريش عند بدء الدعوة ، أو لدعوتهم إلى الإسلام ، أو في أمر من أمور العقيدة . هذا سوى كتب الأمان وكتب تقسيم الغنائم وكتب الإقطاعات .

كل هذا في داخل شبه الجزيرة ، أما في خارجها فقد بعث الرسول بالرسائل إلى ملوك الدول المجاورة ، كالمنذر بن ساوي ، والمقوقس في مصر ، والنجاشي في الحبشة [3] .

---

(1) نفسه ، ج ٣ ص ٦٦ .

(2) راجع النويري : نهاية الأرب ، ج ١٦ ، ص ٣٤٨ وقد وردت كلمة « الصحيفة » في نص هذه المعاهدة وصفا لها عدة مرات .

(3) ذكر المسعودي في « التنبيه والإشراف » أن زيد بن ثابت كان يكتب إلى الملوك ويجيب بحضرة النبي . وكان يترجم للنبي بالفارسية والرومية والقبطية والحبشية ، وتعلم ذلك بالمدينة عن أهل هذه الألسن . وذكر عدد من المؤرخين أن النبي عليه السلام قال لزيد :

(جـ) أما فيما يتعلق بالحديث الشريف فالمعتقد لدى الكثيرين أنه ظل يُتناقل روايةً أكثر من مائة عام ، وأنه « في حياة النبي عليه السلام ، وفي حياة الخلفاء الراشدين ، وفترة من الزمن طويلة مدة الخلافة الأموية ، لم يكن الحديث مدوناً » [1] . والسبب العام الذي يعزى إليه تأخر تدوين الحديث هو كراهة أن يُضاهَى بكتاب الله غيره ، أو يُشتغل عن القرآن بسواه .

أما أن الحديث الشريف ظل يتناقل رواية حقبة طويلة من الزمن فهذا لا مراء فيه ، ولكن هذا لا ينفي بالضرورة عملية تدوينه منذ وقت مبكر ، بل في حياة الرسول نفسه . فعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبدالله بن عباس ، وأبو هريرة ، وسعد بن عبادة الأنصاري ، وأنس بن مالك — هؤلاء جميعاً دونوا الأحاديث منذ وقت مبكر . وقد أخذ عبد الله بن عمرو الرخصة في هذا التدوين من الرسول نفسه . وقفىّ التابعون على آثار الصحابة في هذا الشأن . ثم استمرت عملية تدوين الحديث في نموها الطبيعي ، حتى بلغت غاية اكتمالها في مدونات الحديث الكبيرة الجامعة ، مثل صحيح الإمام البخاري (ت ٢٥٦ هـ) وصحيح الإمام مسلم (ت ٢٦١ هـ) وغيرهما .

وإذن فقد بدأت عملية تدوين القرآن الكريم منذ اللحظة الأولى من حياة الدعوة على أيدي كتاب الوحي أولا ، ثم على يد زيد بن ثابت وجماعته التي شكلها الخليفة عثمان بن عفان أخيراً وبصفة نهائية . وكذلك دونت رسائل كثيرة للرسول عليه السلام ، بعث بها إلى القبائل في داخل شبه الجزيرة وإلى ملوك الدول المجاورة . يضاف إلى هذا أن نفراً من الصحابة كانوا قد بدأوا يدونون لأنفسهم الحديث الشريف في حياة الرسول نفسه . وكل هذا يوضح لنا أن حجم عملية التدوين في ذلك الزمن الباكر لم يكن هيناً .

= أتحسن السريانية ؟ فإنها تأتيني كتب ، قال : لا ، قال : فتعلمها ! (انظر محمد حميد الله : صنعة الكتابة في عهد الرسول والصحابة ، مجلة « فكر وفن » — عدد ٣ سنة ١٩٦٤ .

(١) محمد أحمد خلف الله : دراسات في المكتبة العربية — القاهرة ١٩٥٨ ص ٣٩ .

٤ ــ وتكثر نسخ القرآن الكريم في أيدي الناس منذ عهد معاوية بن أبي سفيان ــ كما أسلفنا ــ فتزداد بهذا حاجة الناس إلى تدبر معانيه ، وإلى من يوضح لهم أحكامه ومقاصده . وما استشكل عليهم فهمه منه . حقاً إن هذه الظاهرة لم تبدأ منذ ذلك العهد ، بل برزت ــ على نطاق ضيق ــ في حياة الرسول نفسه ، فكان الصحابة يسألونه أحياناً عن معنى لفظة أو تأويل آية . لكن شيئاً من هذا التأويل لم يدون في ذلك الوقت . أما بعد ذلك فقد مست الحاجة إلى تفصيل آيات القرآن ، وكان الصحابة ومن بعدهم الجيل الأول من التابعين هم مرجع الناس في هذا التفصيل [١] . وقد دون عبدالله بن عباس ــ فيما دون ــ كثيراً من التفسير ، بخاصة في مجال غريب القرآن وفي أسباب النزول [٢] . ومن التابعين من كتب في التفسير كذلك . مثل عروة بن الزبير [٣] ، وسعيد بن جبير [٤] ، والحسن البصري [٥] ، وقتادة [٦] ، وغيرهم . وقد انتهى هذا التفسير المأثور كله عن الصحابة والتابعين إلى تفسير « جامع البيان في تفسير القرآن » لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ ــ ٣١٠ هـ) . وهو تفسير ضخم ، يقع في ثلاثين جزءاً . وأنت إذا تصفحت هذا التفسير لا تكاد تخطىء في أي صفحة من صفحاته أسماء من ذكرنا وشيكا وغيرهم من الصحابة والتابعين الذين صرفوا قدراً كبيراً من جهودهم إلى تفسير القرآن .

---

(١) كان عروة بن الزبير يتلقى في بعض الأحيان رسائل يسأله فيها أصحابها عن تأويل بعض الآيات ، فكان يكتب إليهم بما يطلبون . (راجع ابن سعد : الطبقات الكبرى ــ طبعة ليدن ــ جـ ٨ ص ٦ ــ ٧ .

(٢) سنشير إلى كتبه في هذا المجال بعد قليل .

(٣) راجع ابن سعد : نفسه .

(٤) راجع ابن سعد : نفسه ٦/١٨٦ .

(٥) راجع ابن النديم : كتاب الفهرست ص ٥١

(٦) هو قتادة بن دعامة السدوسي (ت ١١٨ هـ) .

من أجل هذا عد تفسير الطبري هذا أبرز نموذج لما عرف في المصطلح بالتفسير بالمأثور .

(أ) على أن تفسير القرآن استتبع لوناً آخر من التأليف ، امتزج به منذ البداية ، ثم ما لبث أن انفصل عنه ، وهو كتابة المغازي والسِّيَر .

لقد كان مما وصف به الرسول عليه السلام القرآن قوله : « كتاب الله فيه خبر ما قبلكم ... » [1] والحق إن القرآن الكريم قد تضمن إشارات كثيرة إلى أحداث وشخوص ، ابتداء من آدم عليه السلام وابنيه قابيل وهابيل إلى عام الفيل قبيل البعثة المحمدية . ولكنه كذلك تضمن سيرة الرسول الكريم وأخبار غزواته والوقائع الحربية التي خاضها ضد المشركين . وأمام هذه المواطن من القرآن وجد المفسرون الأوائل أنفسهم مطالبين بتفصيل الحديث فيهـا .

وقد كان لعروة بن الزبير فضل عناية بالتاريخ القديم وبالمغازي . وما أكثر الروايات القديمة التي تشير إلى ما كان يكتبه في تفصيل الخبر في هذه الوقائع إجابة عن أسئلة يرسل بها إليه عبد الملك بن مروان . ومن ثم عد عروة أول من صنف في المغازي [2] .

وقد اشتهر في هذا المجال كثيرون ، منهم أبان بن عثمان بن عفان ووهب بن منبه ، وعاصم بن عمر ، وابن شهاب الزهري ، وموسى بن عقبة ، ومحمد بن إسحق ، ومحمد بن عائذ الدمشقي ، وغيرهم .

(ب) ونحن حين نتصفح مقدمة السيرة التي رواها ابن هشام عن ابن إسحق نجده يقول فيها : « وأنا إن شاء الله مبتدىء هذا الكتاب بذكر إسماعيل ابن إبراهيم ومن ولَدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم من ولَدِه وأولادهم

(١) ابن قتيبة : عيون الأخبار — ط دار الكتب بمصر ، ج ٢ ص ١٣٣ .
(٢) انظر ناصر الدين الأسد : مصادر .. ص ١٤٩ .

لأصلابهم ، الأول فالأول ، من إسماعيل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما يعرض من حديثهم ، وتارك ذكر غيرهم من ولد إسماعيل على هذه الجهة للاختصار ، إلى حديث سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. » (١) فهو إذن يقدم بين يدي السيرة بهذا الاستقصاء الطويل لنسبه عليه السلام .

وعناية العرب بحفظ أنسابها قديمة . وقد عرف منهم نفر برواية النسب فكانوا بمثابة المرجع الذي يئولون إليه إذا اختلط عليهم الأمر . وقد كان أبو بكر الصديق نسّابة (٢) من هؤلاء . وقد أخذ عنه جُبَيْر النسب وتفوق حتى قيل إنه أنْسَبُ العرب . وعن جبير هذا أخذ سعيد بن المسيب (٣) . والذين اشتغلوا بعلم الأنساب كثيرون . والذي يهمنا هنا هو أن نعرف كيف بدأ التدوين في هذا المجال وكيف تطور . ويبدو أن دَغْفَلاً النسابة — وهو جاهلي أدرك الإسلام — هو أول من وردت الإشارة إلى تدوينه النسب في الصحف (٤) . ثم يلي هذا ابن شهاب الزهري ، فهناك إشارة إلى أنه أخذ في تدوين نسب مضر استجابة لطلب خالد بن عبدالله القسري وإن لم يتم الكتاب (٥) . ولعل من أقدم كتب النسب الكاملة كتاب « نسب قريش » لأبي عبدالله المصعب بن عبدالله بن المصعب الزبيري (ت ٢٣٦ هـ) . ثم كثرت بعد ذلك المصنفات في الأنساب .

وكل الشواهد السابقة تشير إلى أن عملية التدوين قد بدأت في حياة العرب منذ وقت مبكر ، وأنها أخذت تنمو وتتطور حتى اكتمل تدوين المعارف العربية والإسلامية في النصف الأول من القرن الثالث الهجرى . وسنحاول

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، جـ ١ ص ٣ .
(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ٥١/٢ .
(٣) الجاحظ : البيان والتبيين ٣٠٣/١ .
(٤) انظر ناصر الدين الأسد : مصادر .. ص١٦٠ .
(٥) انظر الأغاني ٥٦/١٩ .

في الفقرة التالية تقديم شواهد على ما عرف من مدونات منذ العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي ، تساعدنا على تصور حجم التدوين في هذه المراحل الأولى .

ب — المدونات (من الجاهلية إلى نهاية العصر الأموي)

١ — هنالك بعض المدونات التي تعزي إلى العصر الجاهلي ، نشير منها إلى ما يلي :

(أ) أنه اشتهر لدى العرب منذ العصر الجاهلي عدد من الحكماء « كانوا ينهجون نهجاً يذكرنا بنهج حكماء الشرق الأدنى القديم ... فكان الحكيم هو الرجل المثقف ثقافة جامعة لشتى ألوان المعرفة ، وكان بعض الحكماء العرب يورثون الحكمة أبناءهم . » [١]

وقد كان لقمان من أشهر حكماء العرب في الجاهلية . ويبدو أن ما كان لديه من حكمة كان مدوناً في كتاب منذ ذلك العصر ؛ فابن هشام [٢] يشير إلى أن سويد بن الصامت كان يحمل صحيفة فيها حكمة لقمان ، وأنه ذهب بها إلى الرسول عليه السلام فقرأها عليه ، فقال له الرسول : إن هذا الكلام حسن ، والذي معي أفضل من هذا — قرآن أنزله الله تعالى عليّ ، هو نور وهدى .

(ب) ويذكر ابن النديم [٣] أنه كان في خزانة كتب الخليفة العباسي المأمون كتاب بخط عبد المطلب بن هاشم (توفي قبل البعثة المحمدية بحوالي خمسة

---

(١) عبد المجيد عابدين : الأمثال في النثر العربي القديم (انظر ناصر الدين الأسد : نفسه ص ١٦٨) .

(٢) السيرة النبوية ٢/٦٨ .

(٣) الفهرست ، ص ١٣ — ١٤ .

وأربعين عاماً) ، وأن هذا الكتاب كان في جلد أدم ، وقد دون فيه « حق عبد المطلب بن هاشم من أهل مكة على فلان بن فلان الحميري من أهل وزل صنعا ، عليه ألف درهم فضة كيلاً بالحديدة ، ومتى دعاه بها أجابه . شهد الله والملكان » .

(ج) ويذكر العسكري « أن عمران بن حصين قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : الحياء لا يأتي إلا بخير . فقال بشير بن كعب — وكان قد قرأ الكتب — : إن في الحكمة أن منه ضعفاً . فغضب عمران بن الحصين وقال : أحدثك بما سمعت من النبي صلى الله عليه وسلم وتحدثني عن صحفك هذه الخبيثة » . [1]

(د) ويبدو أن كتباً كثيرة من هذا الطراز كانت متداولة بين الناس منذ وقت مبكر ؛ فقد ذكر القاسم بن محمد أن عمر بن الخطاب بلغه أنه قد ظهر في أيدي الناس كتب ، فاستنكرها وكرهها ، وقال : « أيها الناس ، إنه قد بلغني أنه ظهرت في أيديكم كتب ، فأحبها إلى الله أعدلها وأقومها ، فلا يبقين أحد عنده كتاباً إلا أتاني به ، فأرى فيه رأيي » . قال : فظنوا أنه يريد أن ينظر فيها ، ويقومها على أمر لا يكون فيه اختلاف . فأتوه بكتبهم ، فأحرقها بالنار [2] .

(هـ) ويبدو كذلك أن بيع الحيرة وكنائسها في عهد المناذرة كانت مليئة بالسجلات والمدونات ؛ فقد ذكر الطبري [3] أن هشام بن محمد بن السائب الكلبي قال : « كنت أستخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر بن ربيعة ، ومبالغ أعمار من عمل منهم لآل كسرى وتاريخ سنيهم من بيع الحيرة .

---

(١) انظر ناصر الدين الأسد : مصادر .. ص ١٦٨ — ١٦٩ .

(٢) نفسه ص ١٤٠ .

(٣) تاريخ الطبري — ط مصر — ج ٢ ص ٣٧ .

٢ — وينتهي عهد الراشدين ويبدأ العهد الأول من دولة بني أمية بخلافة معاوية بن أبي سفيان . وفي عهده تبرز كتب جديدة ، وفي الوقت نفسه يتسع نطاق الكتب المتاحة للناس . وفيما يلي إشارات لبعض النماذج .

(أ) — ولنبدأ بالإشارة إلى كتب الصحابي الجليل عبدالله بن عباس ، المتوفى سنة ٦٨ هـ . فابن سعد يذكر لنا [١] أن كُرَيْبًا وضع عند موسى بن عقبة حمل بعير من كتب ابن عباس . وكريب هذا ممن أخذوا عن ابن عباس . والخبر نفسه يدلنا على أن هذه الكتب التي كانت لابن عباس ، والتي بلغت حمل بعير ، لم تكن هي كل كتبه . وكذلك كانت هذه الكتب تنتسخ ؛ ففي بقية الخبر أن علي بن عبدالله بن عباس كان إذا أراد كتاباً من هذه الكتب كتب إلى موسى بن عقبة يستعيره منه فينسخه ثم يرده .

(ب) وكذلك يروي ابن سعد عن هشام بن عروة بن الزبير أنه قال : أحرق أبي يوم الحَرَّة كتب فقه كانت له ، فكان يقول بعد ذلك : لأن تكون عندي أحب إلي من أن يكون لي مثل أهلي ومالي [٢] . وقد سبقت الإشارة إلى أن مجال إهتمام عروة قد امتد إلى التاريخ والمغازي ، حتى عد أول من كتب المغازي . فهل كان ما أحرقه في يوم الحرة من كتبه في الفقه غير ما دونه في هذا المجال ، أم أن ابنه هشاماً إنما أطلق عبارة « كتب فقه » على كل كتبه ؟

(جـ) وقد كان معاوية بن أبي سفيان مولعاً بمعرفة أخبار الملوك وسيرهم وسياساتهم ، فكانت لديه دفاتر فيها سير الملوك وأخبارها ، وأخبار الحروب والمكايد . وإنه ليقعد في كل يوم فيحضر له غلمانه هذه الدفاتر ، « فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون قد وكلوا بحفظها وقراءتها » . [٣]

---

(١) الطبقات الكبرى ٥/٢١٦ .

(٢) نفسه ٥/١٣٣ .

(٣) المسعودي : مروج الذهب — بيروت ١٩٧٠ — جـ٣ ص ٢٢٢ .

وربما تضمنت هذه الدفاتر أحاديث عبيد بن شَريّة الجرهمي ؛ فابن النديم يذكر (١) أن عبيداً وفد على معاوية ، فسأله معاوية عن أخبار العرب ووقائعهم ، وعن سير الملوك من عرب وعجم ، وعن تبلبل الألسنة وتفرق الناس ، وغير ذلك من الأخبار ، فكان عبيد يجيبه عن كل ما سأل عنه . وفي الوقت نفسه طلب معاوية من كتابه في الديوان أن يدونوا هذه الأحاديث في الصحف ، وأن ينسبوها إلى صاحبها .

(د) وفي عهد معاوية كذلك ألف عبيد بن شرية كتاباً في الأمثال . وقد ذكر ابن النديم (٢) أنه رأى هذا الكتاب ، وأنه كان نحو خمسين ورقة . وهذا معناه أن هذا الكتاب كان يتداول حتّى عصر ابن النديم ، أي في أواخر القرن الرابع الهجري .

وقد ذكر ابن النديم (٣) كتاباً آخر في الأمثال كذلك ، ألفه صُحار بن عيّاش العبدي ، أي في أيام معاوية .

(ه) ونحن نسمع عن قيام ناد في أوائل النصف الثاني من القرن الأول الهجري لعله الأول من نوعه في المجتمع الإسلامي ؛ إذ يقال إن « عبد الحكم بن عمرو بن عبدالله بن صفوان الجمحي قد اتخذ بيتاً فجعل فيه شطرنجات ونردات وقرقات ودفاتر فيها من كل علم ، وجعل في الجدار أوتاداً ، فمن جاء علق ثيابه على وتد منها ، ثم جر دفتراً فقرأه ، أو بعض ما يلعب به فلعب به مع بعضهم » . (٤)

---

(١) الفهرست ١٣٨ .

(٢) نفسه .

(٣) الفهرست ١٣٨ .

(٤) الأغاني ٤/٢٥٣ .

وهذا كله إن دل على شيء فإنما يدل على تزايد المؤلفات والمدونات في ذلك العهد .

٣ — ثم تستمر حركة التدوين في العهد الأموي الثاني في صعود نتيجة لاتساع نشاط المؤلفين والمصنفين . وفيما يلي عدد من الشواهد التي تؤكد هذه الحقيقة .

(أ) فمن المعروف أن حركة الترجمة للمعارف والعلوم من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية قد بدأت في عصر المأمون العباسي . ولكن الجاحظ يحدثنا[١] عن خالد بن يزيد بن معاوية ، وكيف أنه اشتغل بالعلم وبالتأليف ، وبترجمة الكتب إلى العربية ، فكان أول من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء .

(ب) ويبدو أن عادة التدوين كانت تجري في دم ابن شهاب الزهري ؛ فقد قال ابن أبي الزناد : « كنا لا نكتب إلا سُنة ، وكان الزهري يكتب كل شيء ، فلما احتيج إليه عرفت أنه أوعى الناس » .[٢]

هذا الرجل ملأ الدنيا بمصنفاته وتآليفه ، حتى ليقال إنه كان إذا جلس في بيته وضع كتبه حوله فاشتغل بها عن كل شيء ، حتى عن أهل بيته . ولهذا قالت له امرأته ذات يوم : « والله لهذه الكتب أشد عليّ من ثلاث ضرائر » .[٣]

(ج) وقد كلف الوليد بن يزيد مولعاً بالشعر ، فأراد أن يجمع ديوان العرب وأخبارها وأنسابها : فاستعار من حماد الراوية ، ومن جُناد بن واصل الكوفي — وكان من أعلم الناس بالشعر — ما عندهما من الكتب والدواوين فدونها عنده ، ثم أعادها إليهما .[٤]

---

(١) البيان والتبيين ٣٢٨/١ .

(٢) نفسه ٢٩٠/٢ .

(٣) الفهرست ١٣٤ .

(٤) انظر الأسد : مصادر .. ص ١٥٧ .

وهذا دليل واضح على ما كان لدى هذين الرجلين من مدونات في التراث الأدبي العربي .

(د) على أن خزانة كتب الوليد بن يزيد لم تضم ما استنسخه من كتب حماد وجناد فحسب ، بل كانت تضم كذلك مصنفات ابن شهاب الزهري — على كثرتها — وغيرها من الكتب ، حتى إن الوليد حين قتل سنة ١٢٦ هـ حملت هذه الكتب من خزائنه على الدواب [١] .

(هـ) وكذلك كان أبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ هـ) من أكبر علماء الأدب واللغة . وقد كان حريصاً على الحفظ ، كثير المحفوظ ، حتى انه في مجلسه لم يكن يحدث تلاميذه إلا من ذاكرته . ومع ذلك فقد كان كثير التدوين . والجاحظ يشير إلى حجم ما كان لديه من كتب فيقول إنها « ملأت بيتا له إلى قريب من السقف ، ثم إنه تقرّأ فأحرقها كلها ، فلما رجع بعد إلى علمه الأول لم يكن عنده إلا ما حفظه بقلبه » . [٢]

وقد كان أبو عمرو رأس مدرسة البصرة ومؤسسها ، كما كان حماد الراوية بالنسبة لمدرسة الكوفة ، وعن هذين الرجلين أخذ الرعيل الأول من علماء اللغة والأدب ، ثم تلاحقت أجيال تلاميذهم جيلاً بعد آخر .

(ج) وسائل التدوين :

تحدثنا في الفقرة الأولى عن حركة التدوين لدى العرب منذ مراحلها الباكرة في العصر الجاهلي ، وفي تطورها ونموها في إبان القرن الأول من الهجرة ، وما انتهت إليه هذه الحركة من نشاط واسع النطاق في العصر العباسي

---

(١) راجع ابن سعد : الطبقات الكبرى ١٣٦/٢ .
(٢) البيان والتبيين ٣٢١/١ .

وتحدثنا في الفقرة الثانية — بصورة موازية — عن حجم المدونات في شتى المعارف التي كانت متاحة في تلك الحقبة ، بما يؤكد نمو حركة التدوين واتساع نطاقها في خلال القرن الأول الهجري وبدايات القرن الثاني .

وكل هذا من شأنه أن يقودنا إلى الحكم على دعوى انتهاء القرن الأول الهجري دون أن يدون العرب شيئاً من معارفهم بأنها دعوى تعميمية متسرعة ، تفتقر إلى الأسانيد التاريخية . أما الشك في كل هذه الروايات التي تحدثنا عن التدوين فقد صار واضحاً أنه لا مبرر له .

ونود الآن أن ندعم ما بدا لنا من أمر التدوين لدى العرب منذ العصر الجاهلي من زاوية أخرى .

فالتدوين — لكي يتم — يقتضي بالضرورة توافر عنصرين لا غنى عنهما ، هما معرفة المدوِّن بالكتابة ، وتوافر وسائل التدوين ، بخاصة إذا كان هذا التدوين على نطاق واسع ، وإذا تجاوز الأمر مجرد التدوين إلى استنساخ المدونات في مئات من النسخ ، كما حدث منذ وقت مبكر في تدوين القرآن الكريم واستنساخه .

أما بالنسبة لمعرفة العرب بالكتابة منذ أواخر العصر الجاهلي — وبخاصة في الحواضر — على نطاق معقول نسبياً ، ثم نمو هذه المعرفة مع مضي الزمن — فقد تحدثنا عنه في مستهل الفقرة الأولى ، ويمكن استكناهه من تتبعنا لنمو حركة التدوين في خلال القرن الهجري الأول . ويبقى إذن أن نتحدث عن وسائل التدوين ومدى وفرتها في تلك الحقبة من الزمن .

ولكن الكتابة باللغة العربية لها مشكلة خاصة : تتعلق بالخط العربي نفسه ، في نشأته وتطوره . ومن ثم يصبح أمامنا في هذه الفقرة مشكلتان : الأولى مشكلة الخط العربي بوصفه وسيلة التدوين الكتابية ، والثانية مشكلة الوسائل التي يصلح التدوين عليها .

١ ــ تختلف آراء الباحثين حول نشأة الخط العربي وحول أصوله ومصادره اختلافاً كبيراً ، يتراوح بين الآراء الغيبية التي تجعل هذا الخط توقيفاً من الله تعالى علمه آدم منذ بداية الخلق ، والآراء التي تستقرىء النقوش الحجرية التي عثر عليها في أماكن متعددة من شبه الجزيرة العربية .

(أ) فعلى حين يأخذ ابن فارس[1] بنظرية التوقيف يقول ابن النديم في بيان أولية الخط العربي : « اختلف الناس في أول من وضع الخط العربي ، فقال هشام الكلبي : أول من صنع ذلك قوم من العرب العاربة ، نزلوا في عدنان ابن أد ، وأسماؤهم : أبو جاد ، هواز ، حطي ، كلمون ، صعفص ، قريسات .. والأعراب وضعوا الكتاب على أسمائهم ، ثم وجدوا بعد ذلك حروفاً ليست من أسمائهم ، وهي الثاء والخاء والذال والظاء والشين والغين فسموها الروادف.. وقال ابن عباس : أول من كتب بالعربية ثلاثة رجال من بولان وهم قبيلة سكنوا الأنبار .. وهم مرامر بن مرة ، وأسلم بن سدرة ، وعامر بن جدرة .. فأما مرامر فوضع الصور ، وأما أسلم ففصل ووصل ، وأما عامر فوضع الإعجام » . [2]

وهذان الخبران اللذان يرويهما ابن النديم غير مطمئنين ، وبخاصة ما في الخبر الثاني من إشارة إلى وضع الإعجام منذ البداية ؛ فمشكلة الإعجام تشكل قضية قائمة بذاتها في تاريخ الخط العربي .

(ب) وقيل كذلك إن أول من كتب بالعربية إسماعيل عليه السلام ، وأن « نفيسا » و « نصرا » و « تيما » و « دومة » أبناءه وضعوا كتاباً واحداً ، وجعلوه سطراً واحداً ، موصول الحروف كلها ، غير متفرق ، ثم فرقه

---

(١) انظر الصاحبي في فقه اللغة ــ المكتبة السلفية ١٩١٠ ، ص ٧ .

(٢) الفهرست ١٢ ــ ١٣ .

« ثابت » و « هيسع » و « قيذار » ، وفرقوا الحروف ، وجعلوا الأشباه والنظائر [1] .

وهذا أيضاً خبر لا يمكن الاطمئنان إليه كثيراً .

(ج) وقد قام العلماء حديثا باستقراء عدد من النقوش عثر عليه في مناطق أم الجمال في شرق الأردن ، وفي النمارة قرب دمشق ، وفي زبد ، في الجنوب الشرقي من حلب ، وفي حوران اللجا ، جنوبي دمشق — وهي نقوش قديمة من عصور ما قبل الاسلام ، بالإضافة إلى النقوش والبرديات التي عثر عليها في العهد الإسلامي ، فضلا عن الرسائل الثلاث التي بعث بها الرسول عليه السلام إلى المنذر بن ساوى والمقوقس في مصر والنجاشي ملك الحبشة ، والتي عثر على ما يظن أنه النسخ الأصلية لهذه الرسائل . ومن هذا الاستقراء انتهوا إلى ترجيح أن الخط العربي قد أخذ في البداية عن الخط النبطي [2] ثم أخذ قبيل الإسلام يتطور في اتجاهه الخاص . ومن ثم كان التشابه كبيرا بين الخط العربي قبيل مجيء الإسلام وبين المراحل الأولى من الكتابة في صدر الإسلام . وإذا كانت هناك بعض الفروق الطفيفة فمرجعها إلى التطور الذي حدث في تجويد هذا الخط نتيجه لتزايد عدد الكتاب واتساع نطاق التدوين .

٢ — ومن أهم القضايا التي اتصلت بتاريخ الخط العربي قضية رقش الحروف ، أي استخدام نظام التنقيط للتمييز بين حروفها المتطابقة في الشكل . ففي الأبجدية العربية مجموعات من الحروف ترسم بطريقة واحدة ، هي : الباء والتاء والثاء والياء والنون ، ثم الجيم والحاء والخاء ، ثم الدال والذال ، ثم الراء والزاي ، ثم السين والشين ، ثم الصاد والضاد ، ثم الطاء والظاء ، ثم العين والغين ، ثم الفاء والقاف . وبدون نظام التنقيط هذا ، الذي يميز

---

(٣) انظر الطاهر أحمد مكي : دراسة في مصادر الأدب ، ص ٣٨ .

(٢) انظر ناصر الدين الأسد : مصادر .. ص ٢٤ .

كل حرف عن غيره من الحروف ، يصبح من الصعب قراءة الكلمة صحيحة دائما ، ويصبح التصحيف – أي قراءة الكلمة على غير وجهها الأول المقصود – أمرا شديد الاحتمال ، بل كثير الوقوع .

ولا شك في أن عملية الرقش هذه قد أعطت حروف العربية صورتها النهائية الكاملة . ولكن متى بدأت هذه العملية ، وكيف تطورت ؟

(ا) ينفي بعض الدارسين أن تكون الكتابة العربية في العصر الجاهلي قد عرفت النقط ، فيقول : « كانت الكتابة العربية الجاهلية عارية من النقط خالية من الشكل ، شأنها في ذلك شأن الأم النبطية التي اشتقت منها . ولم يكن العرب الجاهليون في حاجة إلى ضوابط النقط والشكل لمكانتهم من العربية . ولا غرو فالعربية لغتهم وهم سادتها، المالكون لزمامها ، يقرأونها كما يتكلمونها صحيحة بالسليقة والطبع »[1] .

غير أنه من الواضح أن الكلام بالسليقة غير القراءة ؛ فالقراءة – كالكتابة – تحتاج إلى تعلم لأصولها ، ومعرفة برموزها وإشاراتها الصوتية .

(ب) ويرى الدكتور محمد حميد الله[2] أن الرقش كان معروفا في عهد الرسول عليه السلام، معتمدا في هذا على ما ترويه بعض المصادر القديمة من أن « عبيد بن أوس الغساني كاتب معاوية قال : كتبت بين يدي معاوية كتابا . فقال لي : يا عبيد ارقش كتابك ؛ فإني كتبت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم رقشته – (وفي رواية السيوطي : كتبت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا معاوية ارقش كتابك) – قال عبيد : قلت

---

(١) إبراهيم جمعة : دراسة في تطور الكتابات الكوفية – دار الفكر العربي بالقاهرة سنة ١٩٦٩ ص ٢٧٣ :

(٢) محمد حميد الله صنعة الكتابة في عهد الرسول والصحابة – ص ٢٦ .

وما رقشه (وفي رواية ابن عساكر : ما رقشته) يا أمير المؤمنين ؟ قال : أعط كل حرف ما ينوبه من النقط » .

ثم يعلق الدكتور حميد الله على هذه الروايات المختلفة المصادر للخبر نفسه بقوله : « نرى من هذا أن الرقش كان معروفا في أواخر العصر النبوي ؛ فإن معاوية صار كاتبا له بعد فتح مكة في سنة ثمان للهجرة »[1] .

(ج) والدكتور ناصر الدين الأسد يذهب إلى أبعد من هذا فيقول : « كانت الكتابة الحميرية والصفوية والثمودية واللحيانية ، والكتابة النبطية التي يرجح أن الكتابة العربية مشتقة منها — كانت كل هذه الكتابات غير منقوطة ، ولكن المدقق فيها يرى أن الكثرة الغالبة من حروفها يختلف بعضها عن بعض اختلافا يمنع اللبس والاختلاط ، ومن هنا لم تكن في حاجة إلى نقط . وأما الخط العربي فكثير من حروفه متشابهة تشابها كاملا ، مختلفة في الصوت اختلافا تاما ، ولا سبيل إلى التفرقة بينها إلا بالنقط ، بل إن هذا التشابه العجيب بين الحروف ليكاد يجعلنا نظن أن الحرف منذ أن وُجد وُجد معه نقطة . وأن النقط ضرورة من ضرورات هذه الحروف منذ نشأتها » .[2]

ومع أنه يعتمد على رواية للقلقشندي فإن هذه النتيجة لم يؤد إليها إلا الاستنباط العقلي ، فهي نتيجة ظنية على كل حال .

(د) وإذا كانت الآراء السابقة تعتمد على روايات قديمة من مصادر مختلفة فتختلف نتيجة لذلك ، فإن النقوش والبرديات التي عثر عليها حديثا ربما كانت أوثق المصادر في هذا الصدد . فقد « نشر جورج مايلس مقالة مصورة عن كتابة وجدت على سد قريب من الطائف . نقرأ عليها في سنة

---

(١) نفسه .

(٢) مصادر .. ص ٣٨ .

أسطر ما يلي : « هذا السد لعبد الله معوية / أمير المؤمنين ، بنيه (بناه) عبد الله بن صخر / بإذن الله لسنة ثمن وخمسين ، أ / للهم اغفر الله معوية أ / مير المؤمنين وثبته وانصره ومتع ا /لمومنين به . كتب عمرو بن حباب » . ويقول صاحب المقال إنه يوجد رقش على إحدى عشرة كلمة »[1] .

وإذا كان هذا النقش قد كتب في سنة ٥٨ هـ فإن هناك بردية مؤرخة في سنة ٢٢ هـ في أيام خلافة عمر بن الخطاب ، أطلع عليها عالم البرديات أدولف جرومان ، وفيها نص عربي مع ترجمة يونانية . وقد ظهر فيها الرقش على حروف الخاء والذال والزاي والشين والنون[2] .

ومعنى هذا أن هذه الكشوف تؤكد الرأي القائل بمعرفة العرب للرقش منذ وقت مبكر ، أو منذ عهد عمر بن الخطاب على أقل تقدير . على أن المقارنة بين الحروف المرقوشة في البردية (٢٢ هـ) وفي نقش معاوية (٥٨ هـ) يمكن أن تنبهنا إلى أن الحروف القابلة للرقش لم تكن جميعها ترقش في البداية كما أنها لم تكن ترقش في كل الكلمات أو في كل موضع ترد فيه في الكلمة ، وأن الحروف المرقوشة في النقش لا تتفق مع الحروف المرقوشة في البردية إلا في حرف النون .

وربما جاز لنا أن نستنبط من هذا أن العرب وإن عرفوا الرقش منذ وقت متقدم لم يكونوا يستخدمونه دائماً ، وإذا استخدموه لم يستخدموه بصورته الكاملة .

---

(١) انظر محمد حميد الدين : نفسه ص ٢٦ ع ١ والحروف التي رقشت أحياناً في هذه الكلمات هي : ب ، ت ، ث ، ن ، ي .
ويحتمل كذلك الفاء والغين .

(٢) نفسه .

(هـ) وحين ننظر فنجد أن حروف القرآن لم تكن في بادىء الأمر منقوطة يرد على الذهن هذا السؤال : لماذا لم يكن مصحف عثمان منقوط الحروف على الرغم من أن النقط كان — كما رأينا — مستخدما ، ولو جزئيا ، في عهد سلفه عمر بن الخطاب ؟

ومن جهة أخرى فإن كل من يطلع على الرسالة التي بعث بها الرسول عليه السلام إلى المنذر بن ساوي يلاحظ أن الحروف فيها خالية من النقط .

وفي هذا الصدد ينقل الدكتور ناصر الدين الأسد [1] عن ابن الجزري عالم القراءات قوله : « ... إن الصحابة رضي الله عنهم لما كتبوا تلك المصاحف جردوها من النقط والشكل ليحتمله ما لم يكن في العرضة الأخيرة مما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم . وإنما أخلوا المصاحف من النقط والشكل لتكون دلالة الخط الواحد على كلا اللفظين المنقولين المسموعين المتلُوَّيْن شبيهة بدلالة اللفظ الواحد على كلا المعنيين المعقولين المفهومين » .

ومعنى هذا أن العدول عن نقط الحروف في القرآن في البداية كان مقصودا إليه . وهو في تعليل السبب في هذا العدول يورد ما روي عن ابن مسعود — وهو صحابي جليل ، كان له مصحفه الخاص — من أنه قال : « جردوا القرآن ليربو فيه صغيركم ولا ينأى عنه كبيركم » . ثم أورد شرح الزمخشري لهذه العبارة حيث يقول : « أراد تجريده عن النقط والفواتح والعشور لئلا ينشأ نشء فيرى أنها من القرآن » [2] .

وإذن فعدم ظهور النقط في القرآن في بادىء الأمر لا يمكن أن يستدل منه على عدم معرفة العرب آنذاك به ، بل لتحرجهم في استخدامه . ونفس

---

(١) مصادر .. ص ٣٥ .

(٢) نفسه .

الشيء يمكن أن يقال بالنسبة لما دون آنذاك من حديث الرسول عليه السلام ورسائله .

ويؤيد هذا المعنى بطريقة غير مباشرة ما ذكره الدكتور حميد الدين [1] من قول ابن الأثير في « أسد الغابة » إن النبي عليه السلام قال : « إذا اختلفتم في الياء والتاء فاكتبوها بالياء » ، وما يعاضده من قول الإمام الداني في « المحكم» رواية عن يحيى بن أبي كثير : « كان القرآن مجردا في المصاحف ، فأول ما أحدثوا فيه النقط على الياء والتاء ، وقالوا : لا بأس به ، هو نور له».

فعبارة « لا بأس به ، هو نور له » تؤكد معنى التحرج سابقا من استخدام النقط فيه ، والتماس تبرير شرعي لنقط الياء والتاء فيه ، على أساس أن هذا النقط لن يلحق بالقرآن منه ضر ، بل سيكون « نورا » له .

(و) على أن الحاجة إلى نقط القرآن نقطاً كاملاً ما لبثت أن صارت ماسة عندما ظهر التصحيف واللحن على ألسنة الناس ، سواء منهم العرب أنفسهم ومن دخلوا في الإسلام من البلاد المفتوحة . عند ذاك ارتفع الحرج نهائياً أمام الخطر الداهم .

أما اللحن فقد تزايد حتى فزع منه أبو الأسود الدؤلي (ت ٦٩ هـ) فنشط — بأمرأو بتفويض من زياد بن أبيه ، والي العراق في خلافة معاوية — في وضع ضوابط للكتابة تعصم من اللحن ، فاهتدى إلى الفتحة ، وكان يكتبها نقطة فوق الحرف بمداد يختلف لونه عن لون مداد الكتابة نفسها ، وإلى الكسرة ، فجعلها نقطة تحت الحرف ، وإلى الضمة ، فجعلها نقطة بين يدي الحرف ، أي على خط استواء الكتابة ، أما التنوين فجعله نقطتين أمام يدي الحرف ، على خط استواء الكتابة كذلك ، وأما السكون فقد أهمله ، وكان

---

(١) صنعة الكتابة .. ص ٢٧/٢٦ .

.هماله في هذه الحالة يدل عليه . وبهذه الطريقة شكل أبو الأسود المصحف كلـــه .

وأما التصحيف فيبدو أنه استمر ، لأن ما صنعه أبو الأسود من ضبط لحركات الحروف لم يكن ليحول دون الوقوع في خطأ التصحيف نتيجة لغياب النقاط من الحروف المتشابهة . وظل الأمر كذلك إلى عهد عبد الملك بن مروان ، فإذا بالحجاج قد « فزع إلى كتابه ؛ وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المتشابهة علامات ، فيقال إن نصر بن عاصم قام بذلك ، فوضع النقط أفراداً وأزواجاً ، وخالف بين أماكنها بتوقيع بعضها فوق الحروف وبعضها تحت الحروف » . (1)

ومع أن نصرا استخدم لون الحبر نفسه الذي كتبت به الحروف ، لكي تتميز النقاط الدالة على الشكل ، التي وضعها أستاذه أبو الأسود ، عن نقاطه المعجمة للحروف — مع ذلك جاء الوقت الذي أدرك فيه العلماء ما تحدثه هذه الطريقة في الكتابة من إرباك ، وأنه لا بد من الاستعاضة عن نظام أبي الأسود بنظام آخر في الشكل ، فكانت الشرط العلوية والسفلية هي البديل .

ويعزي إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٠ هـ) اختراع هذا الشكل الجديد في بواكير القرن الثاني الهجري . ومنذ ذلك التاريخ شاع النقط والشكل بطريقة المحدثين (2) .

(ز) وعلى الرغم من توصل العلماء إلى نظام محدد للشكل والنقط منذ ذلك العهد ظل كثير من الكتاب — حتى عهد الصولي (ت ٣٣٥ هـ) يهملونهما ، إلا في مواضع قليلة من كتاباتهم ، يحتمل فيها اللبس (3) .

---

(١) الطاهر أحمد مكي : دراسة في مصادر الأدب ، ص ٦١ .

(٢) إبراهيم جمعة : نفسه ، ص ٢٧٤ .

(٣) انظر الصولي : أدب الكتاب ص ٥٧ .

ويبدو أن هؤلاء الكتاب كانوا يتحاشون الشكل والنقط حتى لا يقال إنهم يسيئون الظن بالقارىء . فإذا كان التحرج في البداية من شكل القرآن وإعجام حروفه له صفة دينية فإن التحرج أخيراً كان له صفة أدبية معنوية . على أنه فيما يتعلق بنقط المصحف وشكله — بخاصة في العهود المتأخرة — فالرأي العام يوجب التزامهما ، لأن في هذا — كما يقول السيوطي — « صيانة له من اللحن والتحريف »[1] .

ومن كل هذا يتضح لنا أن الحروف الكتابية العربية كانت قد أخذت شكلها منذ الجاهلية الثانية على أقل تقدير ، وأن إعجام بعض هذه الحروف ، للتمييز بين متشابهها ، كان معروفاً ومستخدماً في نطاق ضيق منذ صدر الإسلام ، ثم حدث توسع فيه منذ بداية النصف الثاني من القرن الأول الهجري ، مع إضافة نظام الشكل (الفتحة والكسرة والضمة والتنوين) لضبط اللغة وتحاشي اللحن .

فلئن كانت صورة التدوين هي الكتابة ، وكانت الكتابة حروفاً تتضام وتتفرق في الكلمات ، لقد كانت هذه الأداة — أعني الكتابة — مسعفة على التدوين والاستنساخ منذ وقت مبكر ، ثم صارت أكثر إتقاناً ومواتاة منذ أن استقر لها نظام الشكل والإعجام .

٣ — وتبقى المشكلة الثانية ، وهي مشكلة الوسائل التي يصلح التدوين عليها ؛ فكما يقتضي التدوين المعرفة بوسيلة الكتابة ، فإن الكاتب لا يكتب في الهواء ، بل يحتاج إلى ما يكتب به — كالقلم — وما يكتب عليه — كالورق مثلاً . ولا يمكن أن ينشأ تدوين بغير هذه الوسائل . ومن ثم فإن تعرفنا الآن على مدى توافر هذه الوسائل لدى العرب قديماً يساعدنا على تصور حجم ما دونوه . والحاجة أم الاختراع كما يقولون . ولو لم تكن الحاجة قد مست

---

(١) السيوطي : الإتقان — طبعة محمد توفيق بالقاهرة — ط ٢ سنة ١٩٣٥ جـ ٢ ص ١٧١ .

في إلحاح إلى استنباط هذه الوسائل لما وجدناها تتوافر لديهم . ولكن على أيّ نحو توافرت لديهم ؟ .

طبيعي أن الورق في صورته المعروفة لنا اليوم ، وبأنواعه المختلفة ، لم يكن معروفاً لدى العرب . ويقال إن العرب لم يعرفوا الورق إلا في أواخر القرن الثاني الهجري . وهذا الوقت متأخر نسبياً . فماذا كان العرب يستخدمون قبل ذلك لتدوين ما يريدون ؟ أي المواد ؟ ومن أين ؟ .

أما المواد فإن الأخبار المتعلقة بتدوين الصحابة للوحي تحدثنا عن رقاع الجلد التي كان بعضهم يدون فيها ، على اختلاف أنواع هذا الجلد ، رقة وسمكا ، واختلاف لونه ، بياضا واحمرارا ، كما تحدثنا عن عُسُب النخل ، وعن اللخاف (وهي حجارة بيضاء رقيقة تصلح للكتابة عليها) ، وعن عظام الكتف العريضة ، والأضلاع ، والورق ، والقماش .

وإذا نحن تأملنا في هذه المواد بدا لنا أن بعضها يحتاج إلى تصنيع ، كالجلد والورق والعسب والقماش . وربما هدتنا هذه الحقيقة إلى تلمس المصادر التي كان العرب في الجاهلية يحصلون منها على هذه المواد . وفي اعتقادنا أن العرب كانوا يحصلون على هذه المواد من مصدرين : أحدهما خارجي والآخر داخلي :

(أ) ١ — من المعروف أن الشعب الصيني من أقدم شعوب العالم التي عرفت الورق وصناعته ، وربما كان أقدمها . وعرف الورق الصيني قديماً في بلاد الهند وفارس . فاذا كانت هذه البلاد قد عرفت هذا الورق « فليس ثمة ما يمنع أن يعرفه العرب في جاهليتهم » [١] ، وذلك عن طريق التجارة ؛ فقد كان هذا الورق الصيني « يستورده التجار العرب الذين كانوا على اتصال تجاري قديم ببلاد الشرق الأقصى » . [٢] ومع ذلك فالشواهد الجاهلية التي تؤكد هذه

---

(١) ناصر الدين الأسد : مصادر .. ص ٨٩ .

(٢) كوركيس عواد : الورق أو الكاغد ؛ صناعته في العصور الإسلامية — مجلة المجمع العلمي بدمشق — مجلد ٢٣ ص ٤١٧ .

الحقيقة قليلة ، وهذا إن دل فإنما يدل على قلة تداول هذا النوع من الورق لدى العرب في ذلك الزمن .

(أ) ٢ — وقد ذكر شعراء الجاهلية كلمة « المهارق » كثيراً في أشعارهم ، وربما وردت لدى الشاعر منهم — كالحارث بن حِلِّزة — أكثر من مرة . وهو يقول في معلقته :

واذكروا حِلف ذي المَجاز ومـــا
قُدِّم فيه ، العهود والكُفَـــــلاءُ
حــذرَ الجور والتعــدي وهـــل
ينقض ما في المهارق الأهـــواء

فما هذه المهارق ؟ ومن أين جاءت إلى عرب الجاهلية ؟

تتفق المصادر القديمة على أن المهارق — ومفردها مُهْرَق — قماش من الحرير ، كان يطلى أو يسقى بالصمغ ثم يصقل بالخرزة ، ثم يستخدم في الكتابة عليه . وهم يعزون مصدره إلى بلاد الفرس ؛ فكلمة « مهرق » فارسية الأصل وقد عربت . وهي في الأصل الفارسي « مَهر كرد » ، أي صُقل به . وهكذا يدل الاسم نفسه على المصدر .

والواقع أن الشاعر الجاهلي قد عرف هذا المصدر وقرر هذه الحقيقة من قبل ، فقد قال الحارث بن حلزة كذلك :

لمن الديار عَفَوْن بالحُبُسْــس   آياتها كمهارق الفـــرس

فهو يقرر أن المهارق صناعة فارسية ، أو أنها — على أقل تقدير — مستجلبة منهـــم .

ويبدو من كثرة استخدام الشعراء الجاهليين لهذه الكلمة أن هذا النوع من الورق كان كثيراً ومنتشراً . ويبدو أن إنتاج الفرس منه كان من الوفرة

بحيث إنهم كانوا يصدرونه إلى البلاد المجاورة . فيقال إن الروم كانوا يكتبون في الحرير الأبيض [١] .

ومعنى كل هذا أن العرب قد عرفوا منذ جاهليتهم هذا النوع من القماش المصنّع للكتابة عليه ، وأنهم استجلبوه – كغيرهم من الشعوب المجاورة – من بلاد الفرس . وأنهم كانوا يكتبون عليه العهود والمواثيق وبنود الأحلاف بين القبائل وغيرها ، كحلف ذي المجاز (كما هو واضح من بيتي الحارث) .

(أ) ٣ – وإلى جانب هذين المصدرين الأجنبيين هناك مصدر ثالث أمد العرب بالورق منذ العصر الجاهلي . فقد وردت كلمتا القرطاس والقراطيس في القرآن الكريم [٢] . وقبل ذلك وردت في قول الشاعر الجاهلي طرفة بن العبد يصف ناقته .

وخدٌّ كقرطاس الشآمي ومشفر كسِبْت اليماني قده لم يُجَرَّدِ

فما هذا القرطاس ؟

إن كلمة القرطاس أجنبية معرّبة . ولم يذكر القدامى أصلها ، ولكن المحدثين أرجعوها إلى لفظة Chartes اليونانية ، ومعناها ما يكتب فيه ، ويقابلها في العربية : ورقة وصحيفة [٣] . فهل نفهم من هذا أن القراطيس كانت صناعة يونانية تصدر إلى خارج البلاد ؟ الجواب بالسلب ؛ فإن كلمة القراطيس كانت تطلق في كثير من المراجع العربية القديمة على ورق البردى ، وهو الورق الذي كان يصنع في جنوب مصر على نطاق واسع ، ويصدر إلى سائر الأقطار ومنها بلاد الروم [٤] . ولعله من هنا أطلق عليه اليونان ثم الرومان

---

(١) نفسه ص ٤١١ .

(٢) جاء في سورة الأنعام ، الآية السابعة : « ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس .. » وجاء فيها أيضاً ، في الآية الحادية والتسعين : « .. تجعلونه قراطيس تبدونها ».. .

(٣) انظر كوركيس عواد : نفسه ، ص ٤١٤ .

(٤) نفسه .

كلمتهم « كارتيز » التي عربت إلى قرطاس . وكذلك كان يطلق على ورق البردى لفظة الطوامير . مفردها طومار . وهي كثيرة الدوران كذلك في المصادر العربية ، وإن كانت في الحقيقة وصفاً لقَطع ورق البردى فصارت اسماً له .

ومن ثم يتضح لنا معنى وصف طرفة لحدناقته بأنه كقرطاس « الشآمي » ؛ إذ أن هذا يوضح لنا حركة انتقال ورق البردى إلى العرب في الجاهلية . فقد كان الرومان يستوردون هذا الورق من مصر ، وكانت أرض الشام امتداداً لإمبراطوريتهم ، ومن الشام كانت قوافل التجارة العربية تحمله ضمن ما تحمل من أرض الشام من بضاعة .

هذه إذن هي أنواع الورق الثلاثة التي نعتقد أن العرب عرفوها منذ العصر الجاهلي وإن استخدموها في نطاق ضيق نسبياً ، لأنها — فيما يبدو — لم تكن متاحة في كل وقت ، بل رهنا بما يجلبه التجار العرب منها من خارج البلاد .

(ب) ١ — وأول مواد الكتابة التي كانت تُنتج داخلياً الأديم » ، وهو الجلد الأحمر المدبوغ . وقد ورد ذكره في قول الشاعر الجاهلي المرقش الأكبر :

الدار وحْشٌ والرسوم كما رقّشَ في ظهر الأديم قلمْ (١)

وكذلك كانوا في أوائل الإسلام يكتبون على الأدم ، كعهد الحيبريين من اليهود ، وككتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى كسرى ، وكما كتبت مصاحف القرآن في جلود الظباء .. (٢)

لقد كان القرآن الكريم مدوناً — قبل جمعه — في جلود وعظام وعُسُب

---

(١) الأغاني ١٢٧/٦ .

(٢) انظر كوركيس عواد : نفسه ص ٤١٦ .

وورق وغيرها ، ولكن بعد جمعه أجمع الصحابة . رضي الله عنهم ، على كتابته في « الرَّق » — وهو نوع رقيق من الجلد ، يسوى للكتابة عليه — وذلك ، كما يقول القلقشندي [1] ، لطول بقائه ، أو لأنه الموجود عندهم حينئذ ، وأنه — أي القرآن — بقي في الناس على ذلك إلى أن ولي الرشيد الخلافة .

ونحن نرجح أن هذا النوع من الجلد — أي الأديم — كان ينتج محلياً ؛ فقد ذكر رافع بن خديج حديثاً للرسول عليه السلام ثم قال : « وهو مكتوب عندنا في أديم خَوْلاَنِي».[2] وخولان قبيلة في اليمن، ونسبة الأديم إليها يعني أن صناعة جلود الكتابة كانت معروفة في اليمن منذ العصر الجاهلي . ويبدو أنه كان نوعاً متميزاً من الجلود .

(ب) ٢ — وكذلك الأمر بالنسبة لعسب النخل التي كانت تستخدم للكتابة ؛ فقد استخدمت في مرحلة كتابة الوحي أحياناً ؛ ولكنها كانت مشهورة ومستخدمة لدى العرب في الجاهلية . وقد وردت الإشارة إليها كثيراً في شعر ذلك العصر ، ولكن يهمنا من ذلك كله قول امرىء القيس :

لمن طلل أبصرتُه فشجاني كخط الزبور في العسيب اليماني

فكما نسب الحارث المهارق إلى الفرس ، ينسب امرؤ القيس العسيب إلى اليمن .

ومعنى كل هذا أن اليمن — فيما يبدو — كما كانت لها شهرتها في مجال الثياب (البرود اليمانية) وصناعة السيوف (السيوف اليمانية) — كانت معروفة أيضاً بدباغة الجلود وإعداد عسب النخل وتهيئتها جميعاً لكي يكتب عليها .

---

(١) نفسه ص ٤١٧ .

(٢) انظر ناصر الدين الأسد : نفسه ص ٧٨ .

وإذا كان القرآن الكريم قد ظل يكتب — كما رأينا — على الأديم حتى خلافة الرشيد فإن هذا يدلنا على كمية الجلود التي كانت تصنَّع لهذا الغرض .

* * *

وهكذا عرف العرب قبل الإسلام وفي صدره الأول كثيراً من وسائل الكتابة ، منها ما كان يستجلب من الخارج ومنها ما كان ينتج محلياً .

والحق إنهم لم يجدوا وسيلة تصلح الكتابة عليها إلا استخدموها . وقد كانت بعض آيات الوحي مدونة — قبل جمعه — في « أقتاب » (بمفردها قتب ، وهو الإكاف الصغير على قدر سنام البعير .) وكان هذا مألوفاً لدى العرب في الجاهلية . ففي حديث أبي الفرج الأصفهاني أن المرقش الأكبر كتب على رحله الأبيات التي أولها :

يا صاحبيَّ تلبثا لا تعجَـــــــــلا ... إن الرواح رهـــين ألا تفعلا

وذكر بقية الأبيات [1] .

هذا بالإضافة إلى عظام الكتف واللخاف [2] وغيرها ، وكلها وسائل أولية تسمح بها البيئة .

٤ — هذه الوسائل الكتابية التي عرفها العرب منذ العصر الجاهلي وفي الصدر الأول من الإسلام يبدو أنها ظلت هي وسائل الناس للتدوين إلى قرب نهاية القرن الثاني الهجري .

فالإمام الشافعي يحدثنا كيف أنه عندما شرع يدون ما يسمعه من العلماء كان يأخذ العظام والأكتاف فيكتب فيها [3] . ولكن ليس معنى هذا أن

(١) الأغاني ١٦/١٣٠ .

(٢) أشار إليها ابن النديم في الفهرست ، ص ٣٧ .

(٣) انظر ناصر الدين الأسد : مصادر .. ص ٨٦ .

الوسائل الأخرى الأيسر في التدوين عليها ، وبخاصة الورق ، لم تكن مستخدمة .

فقد أشرنا من قبل إلى البردية التي ترجع إلى عهد عمر بن الخطاب . والحق إن استخدام ورق البردى للكتابة العربية في مصر بصفة خاصة قد بدأ منذ الفتح العربي لمصر ، وأصبحت مدوناته في القرون الثلاثة الأولى للهجرة وثائق على جانب عظيم الأهمية بالنسبة للحياة المدنية في مصر في هذه الحقبة .

وبعد انتهاء زمن الفتوح ، واستقرار الأمور في الدولة الإسلامية، يصبح تداول السلع بين الأقطار الإسلامية ، ومنها الورق ، أمراً طبيعياً . ويبدو أنه كان من الوفرة بحيث صار في متناول من يحتاج إليه بسعر زهيد . فقد روى ابن سعد [1] أن علي بن أبي طالب قام يخطب في أهل الكوفة فقال : من يشتري علماً بدرهم ؟ فاشترى الحارث الأعور صحفاً بدرهم ، ثم جاء بها علياً فكتب له علماً كثيراً .

فمن أين كان الحارث وغيره يشترون هذا الورق بهذا السعر الزهيد ؟

لا بد أن تجارة الورق في ذلك الوقت قد نشطت ، ويقال « إنه كانت لها أسواق أو متاجر خاصة تباع فيها ، ويقوم على بيعها رجال يختصون بهذا الضرب من التجارة ويعرفون به ، ويلقبون بالوراقين » . [2] وفي سوق الوراقين كانت تتم كذلك عملية استنساخ القرآن الكريم والكتب المختلفة . ومن هذه الأسواق خرج عدد من أعلام الثقافة العربية ، في مقدمتهم الجاحظ .

وقد ظلت القراطيس المصرية تملأ أسواق العراق إلى منتصف القرن الثاني الهجري . يذكر ابن عبدوس الجهشياري أن الخليفة أبا جعفر المنصور ، باني مدينة بغداد ، « وقف على كثرة القراطيس في خزائنه ، فدعا بصالح ، صاحب المصلى ، فقال له : إني أمرت بإخراج حاصل القراطيس من خزائننا

---

(١) انظر الطبقات الكبرى ٦/١٦ .

(٢) ناصر الدين الأسد : مصادر .. ص ١٣٥ .

فوجدته شيئاً كثيراً جداً ، فتول بيعه . وإن لم تعط بكل طومار [1] إلا دانقا [2] ؛ فإن تحصيل ثمنه أصلح منه . قال صالح : وكان الطومار في ذلك الوقت بدرهم ... [3] » وما كان المنصور ليفكر في بيع هذا الورق بسدس ثمنه إلا لأن المخزون منه لديه وفير ، وأن أسواق الوراقين في بغداد ممتلئة منه .

أما أن ثمن الطومار كان درهماً فهذا يذكرنا بالصحف التي اشتراها الحارث من قبل من الكوفة في زمن علي بن أبي طالب بدرهم كذلك ؛ إذ يبدو أنها كانت طومارا ، وأن سعر الطومار — من ثم — ظل ثابتاً منذ عهد علي إلى عهد المنصور ، أو أنه كان في عهدهما هو نفس السعر .

على أن الورق المستخدم للكتابة في ذلك العهد لم يكن كله — فيما يبدو — من قراطيس مصر ؛ « فابن النديم يذكر أنه رأى أوراقاً يحسبها من ورق الصين بخط يحيى بن يعمر . ويحيى بن يعمر توفي في سنة ٩٠ للهجرة » . [4] . وربما كان هذا الورق الصيني مما درج التجار العرب منذ القدم على استجلابه عن طريق الهند أو عن طريق بلاد فارس .

أما صناعة الورق في العراق وما والاها فالراجح أنها بدأت في مدينة سمرقند ، التي فتحها العرب في سنة ٨٧ هـ . وأما متى بدأت هذه الصناعة فيها فتشير المصادر إلى الواقعة التي جرت بين العرب بقيادة زياد بن صالح وبين أمراء الترك وحلفائهم الصينيين على ضفاف نهر طراز سنة ١٣٤ هـ ، وكيف أن زياداً عاد إلى سمرقند بسبي من الصينيين ، كان فيهم من يعرف

---

(١) كان طول الطومار ثلاثين ذراعاً وأكثر في عرض شبر . (انظر كوركيس عواد : نفسه ص ٤١٢) .

(٢) الدانق : سدس الدرهم .

(٣) انظر كوركيس عواد : نفسه ص ٤١٤ .

(٤) ناصر الدين الأسد : نفسه ص ٩٨ .

صنعة الكاغد (الورق) فاتخذها ، ثم كثرت حتى صارت متجراً لأهل سمرقند ، فمنها يحمل إلى سائر البلاد [1] .

وقد أصبح هذا الكاغد (الورق) معروفاً على نطاق واسع في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد (١٧٠ هـ - ١٩٣ هـ) ؛ فقد « أمر أن لا يكتب الناس إلا في الكاغد ؛ لأن الجلود ونحوها تقبل المحو والإعادة فتقبل التزوير ، بخلاف الورق .. » [2]

ويبدو أن صناعة هذا النوع من الورق (الكاغد) الذي تستخدم في صناعته ألياف الكتان ، كانت قد انتقلت في عهد الرشيد إلى بغداد كذلك ؛ « فالفضل بن يحيى البرمكي ، وهو من أعيان وزراء بني العباس ، كان أنشأ أول معمل لصنع الورق في بغداد » . [3]

وهكذا ظلت القراطيس المصرية تملأ الأسواق وتستخدم في الكتابة على نطاق واسع منذ عهد معاوية بن أبي سفيان إلى ما بعد عهد المنصور العباسي ، إلى أن حل الكاغد السمرقندي ثم البغدادي محلها - لصفاته الجيدة الخاصة - فغمر إنتاجه الأسواق .

* * *

خاتمة :

من كل ما سبق يتضح لنا أن هناك توازياً ملموساً بين حركة التدوين لدى العرب منذ عصر ما قبل الإسلام ، وحجم المدونات التي أنجزت ، وتوافر الوسائل الصالحة للتدوين فيها . إنها كذلك عناصر متكاملة ، يؤثر غياب عنصر

---

(١) انظر كوركيس عواد : نفسه ص ٤١٨ .
(٢) نفسه ص ٤٢٧ .
(٣) نفسه ص ٤٢٦ .

منها أو النقص فيه على العنصرين الآخرين . ومن ثم يمكننا أن نقول إنها نشأت . وتطورت ، ونمت ، بمعدل واحد ، واستجابة لمطالب الحياة العربية والإسلامية في خطها النامي الصاعد من الجاهلية إلى زمن العباسيين .

ولكن ينبغي لنا — قبل أن نختم هذا التمهيد — أن ننبه إلى حقيقة أن حركة التدوين هذه قد ظلت إلى نهاية القرن الثالث الهجري مصاحبة للرواية الشفوية . ولا شك في أن الاعتماد على الرواية في بادىء الأمر كان أكثر ، ثم نشطت حركة التدوين حتى صارت معادلة للرواية . وهي المرحلة التي برزت فيها ظاهرة « السماع » ، ثم غلب التدوين في المرحلة الثالثة ، وهي المرحلة التي كانت فيها المعارف والعلوم العربية قد تأصلت واتسع نطاقها ونشط التأليف فيهـــا .

أما ظاهرة « السماع » فقد كانت تعني أن يقرأ التلميذ على أستاذه ما دونه من كلامه ، فإن أقره الأستاذ كان من حق التلميذ أن يروي هذا الذي دونه منسوباً إلى الأستاذ . والهدف من هذه العملية هو توثيق المادة أو المعلومات التي دونها .

ويذهب بعض الباحثين المعاصرين إلى أن خلف بن حيان (ت ١٨٠ هـ) . تلميذ مؤسس مدرسة البصرة أبي عمرو بن العلاء ، كان « أول من أحدث السماع في البصرة ، وقرأ عليه أهل الكوفة أشعاوهم » . (١) والحق إنه لم يكن أولاً في هذا التقليد ، فإن ظاهرة القراءة سماعاً على الشيخ قد بدأت منذ وقت مبكر ، منذ زمن الصحابة على أقل تقدير . فقد قال بشير بن نهيك : « أتيت أبا هريرة بكتابي الذي كتبته فقرأته عليه ، فقلت : هذا سمعته منك ؟ قال : نعم » . (٢) وهو في هذا يأخذ التصريح له برواية ما هو مدون لديه عن أبي هريرة .

(١) الطاهر أحمد مكي : دراسة في مصادر الأدب ، ص ٢٩

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ١٤/٧ .

ومن ثم يمكننا أن نقول إن السماع ، أي التدوين ثم القراءة على الأستاذ ثم الرواية ، كان أسلوباً حرص عليه الآخذون سبيل العلم منذ وقت مبكر . وظلوا ملتزمين به حقبة طويلة من الزمن . وكان الهدف الأساسي من هذه العملية هو إسناد المادة وتوثيقها ؛ لأن مجرد نقل المادة من كتاب إلى كتاب دون هذا التوثيق إنما يعرضها للتحريف والتصحيف . أما الرواية عن طريق السماع فهي الجديرة بأن يوثق فيها . ومن ثم قال ابن سلام : « وليس لأحد ... أن يقبل من صحيفة ولا يروي عن صحفي » . (١)

وابن سلام في هذا الموقف إنما كان يواجه تياراً بين بعض الآخذين في العلم ، كان قد أخذ يتفشى في الحياة الثقافية ، وهو الاكتفاء بتحصيل المعرفة تدويناً دون سماع ، أي دون رواية وإسناد . وهو يشجب هذا الاتجاه . ويحذر من تحصيل المعرفة عن هذا الطريق .

وإذا كان ابن سلام في القرن الثالث الهجري (ت ٢٣١ هـ) ما زال حريصاً على تأكيد أهمية الرواية المسندة فإن هذا يطمئننا إلى قيمة المصادر الأدبية واللغوية التي خلفتها لنا الأجيال المتعاقبة من علماء المسلمين . والتي نحن بصدد التعرف على أهمها في هذا الكتاب .

---

(١) ابن سلام الجمحي : طبقات فحول الشعراء — دار المعارف بمصر — ص ٥ — ٦ .